



كم سورياً ينبغي أن يتجمد من البرد؟ وكم فلسطينياً ينبغي أن يلحق بسكان البيوت المدمرة في غزة، لكي يستيقظ الضمير العربي ويمد إليهم يد الإغاثة والعون؟

وهل نستطيع أن نقول إنه حين تجمد هؤلاء بسبب الصقيع والبرد، فإن قلوب ملايين العرب تجمدت بدورها، فما عادت تحرکها صور الأطفال المجمدين، ولا صور أهاليهم الباكين الذين أعجزهم الصقيع حتى عن دفنهم.

وما عادوا يستشعرون الذنب حين يطالعون منظر كبار السن وهم يرتعشون ويدررون الدموع، من شدة البرد والجوع، بعدما ضربت الرياح الثلجية خيامهم. حتى أوقعتها فوق رؤوسهم ولم يستطعوا لها دفعاً.

قبل يومين قرأت عن الطفلة رهف أبو عاصي التي لم تحتمل البوس في غزة، فماتت من شدة الجوع والبرد بعد شهرين فقط من ولادتها، قرأت في الوقت نفسه، عن الطفل السوري ابن السنوات الثمانى الذي تجمد من البرد في شبعا، وعن الأطفال الخمسة الذين لقوا ذات المصير في دوما بريف دمشق.

وذلك أخبار صارت يومية وروتينية حتى بدت وكأنها حوادث عادية، وإن صرنا نطالع تلك الأخبار يوماً بعد يوم، فإن التقارير باتت تحمل إلينا صوراً مفزعـة وصادمة من المخيمات المقامـة على الحدود، بين سوريا وبين كل من الأردن والعراق ولبنان وتركيا، وهي لا تختلف كثيراً في مضمونها عن التقارير التي تخرج من قطاع غزة ومعاناة أهله الذين دمر الإسرائيـليـون بيـوـتهم حتى تركوا عشرات الآلاف منهم في العراء لـذـلـلـهـمـ وـالـتـنـكـيلـ بـهـمـ.

أدرى أن نكبات العرب تعددت في هذا الزمان، إلا أن نكبة السوريين والفلسطينيين أكبر من غيرهم، للأسف فإن الفلسطينيين كانوا سباقين حيث نكبا بالاقطاع والطرد من جانب الإسرائيـليـين منـذـ عـامـ 48ـ حتىـ الآـنـ، ثم نكبا بـرمـوزـهـمـ الذين فرطوا في قضـيـتهمـ ونسـقـواـ معـ عـدوـهـمـ، وـنـكـبـواـ مـرـةـ ثـالـثـةـ بـأـشـقـائـهـمـ الـذـيـنـ أـدـارـوـاـ ظـهـورـهـمـ لـهـمـ وـشـارـكـواـ فيـ حـصـارـهـمـ

وإذلالهم، أما السوريون فإن نكبتهم المستمرة منذ أربع سنوات تسبب فيها نظام أبدي استعداداً مدهشاً لإفناه الشعب السوري وتدمير البلد كله، مقابل استمرار احتكاره للسلطة، ولم يتوقف سعيه ذاك طوال تلك المدة، مستعيناً ببعض الأشقاء والخلفاء.

لا نستطيع أن نصف الصمت العربي إزاء ذلك بأقل من أنه نكبة أخرى، بل فضيحة تاريخية، حيث ما خطر ببال أحد أنه يمكن أن يتعايش ملايين من العرب الذين يعانون من البرد والجوع، جنباً إلى مع ملايين آخرين من العرب يشغلون بالمهرجانات الغنائية وسباقات الإبل وحروب الانتحار الداخلية.

لم نسمع أن الجامعة العربية دعت إلى اجتماع لشحذ همة الدول الأعضاء لكي تقوم بواجبها إزاء الفلسطينيين والسوبيين، لم نسمع أن الهلال الأحمر العربي ولا منظمات الإغاثة في الأقطار المختلفة استنفرت ونظمت حملات لتوفير الاحتياجات للمنكوبين ولإعمار قطاع غزة، لم نسمع عن تحرك للنخب المهمة بالتضامن العربي أن رفعت صوتها منادياً بإيقاظ النائمين وتتبه الغافلين، لكي يؤدي المجتمع العربي واجبه إزاء الخطر الحال والكارثة المحدقة.

لا أستطيع أن أتجاهل أن بعض الجهات أسهمت في الإغاثة ولكن إسهامها كان دون المطلوب، وألتمس العذر للذين حاولوا إيصال بعض المعونات إلى المحاصرين ولكنهم منعوا من ذلك، وهو ما أعتبره موقفاً مشيناً وعاراً لن ينسى ولن يغفر، كما أننا لا نستطيع أن نقلل من شأن حملة الإغاثة التي تقدمها المنظمات التركية، إلا أن الحمل يظل أكبر وأثقل مما تستطيع القيام وحدها به.

في هذا الصدد، فإننا لن نستطيع أن نعاتب أو نلوم المنظمات الإغاثية العالمية، لأن هناك أكثر من رد يسكننا ويخجلنا، ليس فقط لأن هناك تقصيرًا عربياً في إغاثة الفلسطينيين والسوبيين، ولكن لأن بعض الدول النفطية الفاردة على العطاء والعون أصبحت تفضل الإنفاق بسخاء على دعم الثورة المضادة للربيع العربي في أكثر من بلد، وتقديمه على جهود إغاثة الإنسان العربي لإبقاءه على قيد الحياة.

الخلاصة أنه يتعمد علينا أن نعترف بأنه ما عاد للعرب نظام أو كيان نطالب به بأن يقود حملة لإنقاذ السوريين والفلسطينيين المشردين والمهددين بالموت. أيضاً ما عاد للعرب كبير نحاطبه وندعوه لأن يتحمل مسؤوليته إزاء أشقاء الأصغر منه، وما عاد لهم مجتمع مدني يعبر عن ضمير الأمة وألامها، بوسعيه أن يضغط على أصحاب القرار ويطالبهم بتحمل مسؤوليتهم التاريخية في التخفيف من عذابات أبناء الأمة الذين جار عليهم الزمن، بل ما عادت في العالم العربي منظمات إغاثية قادرة على التعبئة والحركة، بعدما عصفت السياسة بالأنشطة الأهلية وقامت بتأميمها وتوظيفها لصالح حساباتها.

في السابق كانت تظاهرات السوريين تجأر بالنداء: ما لنا غيرك يا الله.

وقبل أيام قليلة تناقلت موقع التواصل الاجتماعي نداء يردد نفس الفكرة إذ يقول ما معناه، لا تجهدوا أنفسهم في التواصل مع الخطوط الأرضية فكلها مقطوعة أو مشغولة، وما بقي مفتوح أمامكم سوى أبواب السماء، فإليها توجهوا بالدعاء أن ينزل الله رحمته على عباده المقهورين ولعنته على الظالمين والمستبدين.

لنا أن نردد معهم نفس النداء. ولكن هل يئسنا تماماً من أي جهد إغاثي يبذل على الأرض. وإذا كانت الشهامة والمرءة قد اختفت في زماننا، فهل اختفت الإنسانية أيضاً وفسدت الضمائر إلى ذلك الحد المشين والمخل؟

